ما الذي يجري في الجغرافيا الفكرية؟

د. حسن بن فهد الهويمل
رئيس المكتب الإقليمي لرابطة الأدب الإسلامي العالمية
أستاذ غير متفرغ «جامعة القصيم»

إذا كان لكل زمان دولة ورجال فإن لها أولويات فكرية، ومن ثم نجد المشهد الفكري والسياسي والديني ينبض بخطابات التسامح والوفاق والحوار، وليس في المراوحات الموزونة بين الخطابات من بأس، ولو رصدنا من خلال علم «أسباب النزول» تحولات الخطاب التشريعي لوجدنا تبايناً يتساوق مع تحولات الأوضاع التي تمر بها الأمة الإسلامية، والمكي والمدني يتفاوتان في القضايا، ولهذا فليس غريباً أن تهتم الأوساط السياسية والفكرية والدينية بالحوار، وأن تعقد الندوات وتنفذ المهرجانات وتقيم المؤتمرات لوضع مناهج وآليات لحوار حضاري يقي الإنسانية من الصدامات الدموية المدمرة.

وإشكالية المشاهد أنها موبوءة باللعب السياسية وصراع المصالح و«الاستراتيجيات» ومن ثم فقد تُلوى أعناق النوايا الحسنة لتكون في صالح الأطماع الاستعمارية. وتحفّظ البعض أو تخوفه مرده إلى عدم التمييز بين ما هو في سبيل الحق وما هو من أجل المصالح العاجلة وعلى كل الأحوال فإن من مصلحة الأمة العربية والإسلامية أن تختار طريق الحوار الحضاري لأنه من المتقنيات الإسلامية، ولأنه فوق هذا مناسب لأوضاع الأمتين العربية والإسلامية في ترديها وضعفها. والأعمال الإرهابية المنظمة التي قَسَّمت الكرامة الأمريكية أتاحت الفرصة لأعداد الأمة العربية والإسلامية لتحريض الغرب على الإسلام وتشويه سمعته، ولن تُجهض هذه المؤامرة القذرة إلا بخيار السلام والحوار، وإذ يكون السلام خياراً أولياً وليس ضرورة فإن واجب المفكرين أن يجنحوا إليه امتثالاً لأمر الله وتحقيقاً للمصلحة العامة وانسجاماً مع قدرات الأمة العربية والإسلامية والأهم في هذا السياق أن نعي مفهوم الحوار ومقتضياته وألا يستدرجنا المتربصون بحيث نتصور الحوار تخلياً عن محققات الحضارة الإسلامية، ولقد نسمع ونرى من يركب موجة التسامح ويقترف خطيئة المسح والذوبان في الآخر، بينما نسمع ونرى من يتخلى بأنفة غير مسنودة عن التعايش والتصالح وتبادل المصالح بدعوى أن هذا إعطاء للدنية في الدين، ولأن الإسلام وسطي فإن على أهل الذكر أن يَحولوا دون نفاذ رؤية الطائفتين: طائفة المسح والذوبان، وطائفة الممانعة غير المبررة وغير المشروعة، وإذ تكون الفرصة متاحة لتجنيب الأمة ويلات الحروب والقتل المجاني فإن على العقلاء والمجربين أن يصححوا المفاهيم وأن يرشدوا المواقف وأن لا يدعوا الفرصة متاحة لنفاذ خطابات الإفراط والتفريط.

ولأن قائد حملة الحوار والتسامح خادم الحرمين الشريفين يقود حملة الحوار، ويتفادى الصدام مع الأقوى ويبلغ الدعوة بالتي هي أحسن؛ فإن على الأمة أن تترسم خطاه وأن تبارك مسعاه، وأن تشد عضده، فالأوضاع العالمية متوترة ومأزومة وأعداء الأمة العربية والإسلامية لا يريدون لها تفادي الأوضاع والخروج من عنق الزجاجة بأقل الخسائر.

لقد كان بإمكان الأمة الإسلامية قبل الحادي عشر من سبتمبر أن تشيع القيم الإسلامية عبر الدعوة السلمية المنتشرة في آفاق المعمورة وفي الولايات الأمريكية المتحدة على وجه الخصوص، غير أن الأصابع الخفية عكرت الصفو وزرعت الشك والخوف بهذه العملية التي مسّت الكرامة الأمريكية وحدتها لاتخاذ مواقف متشددة أجهضت بسببها الدعوة والقدوة الحسنة. والتحرك المسدد الذي تبنته المملكة العربية السعودية بعث الثقة والاطمئنان وقلص شبح الخوف الذي انبعث بعد الأحداث في أمريكا.

ولما تزل رواسب الأحداث تغالب مشاريع التسامح والتصالح والحوار، وأمام طوفان التناقضات لا نجد بداً من التأسيس المعرفي والمنهجي لمشروع الملك عبدالله بوصفه الخيار الوحيد والأمثل والأهدى والأجدى.

وإذا نجحت الدولة في مواجهة الإرهاب واستطاعت بضرباتها الاستباقية الحيلولة دون نفاذ أي عملية؛ فإن من الواجب أن نمتلك القدرة على وضع آلية ومنهج يمكن مشروع الحوار الحضاري من النفاذ وإعطاء نتائج إيجابية.

وأحسب أن مركز الملك عبدالعزيز للحوار الوطني خير من ينهض بهذه المهمات النبيلة، وهو ماض في ذلك غير أننا وفي ظل الظروف العصيبة أحوج ما نكون إلى مزيد من العطاء وتنظيم للأداء.

إذا كان السلام خياراً أولياً وليس ضرورة فإن واجب المفكرين أن يجنحوا إليه امتثالاً لأمر الله وتحقيقاً للمصلحة العامة